حوليات آداب عين شمس المجلد ٤٦ ( عدد يناير – مارس ٢٠١٨)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

# التعددية الإثنية والمذهبية في الدولة الرستمية
# ما لها...وما عليها

**سلمى محمود إسماعيل ***

مدرس التاريخ الإسلامي- كلية الآداب – جامعة المنصورة

## المستخلص

تنطلق دراسة الموضوع من إطار نظري لابن خلدون عن " أثر العصبية و الدعوة الدينية في قيام الدول و سقوطها " . و كذا من مقولته عن " أسباب التحالفات و الائتلافات القبلية و العنصرية و عوامل انفراطها" .

لذلك ؛ كان هذا البحث تطبيقا عمليا للرؤية الخلدونية في فلسفة التاريخ المغربي في العصور الوسطى الإسلامية . إذ قامت الدولة الرستمية في بلاد المغرب الأوسط سنة ١٦٢ هـ ، و سقطت سنة ٢٩٦ هـ . و في الحالين معا ؛ أثبتت الدراسة مصداقية رؤية ابن خلدون بامتياز .

لقد تأسست الدولة الرستمية استنادا إلى حلف قبلي تزعمته قبيلة " لماية " شمل الكثير من قبائل المغرب الأوسط من البتر و البرانس على السواء . أما الدعوة المذهبية فتكمن في المذهب الخارجي الإباضي الذي اعتنقته كافة القبائل التي شكلت عصبية الدولة ؛ و هو ما أسفر عن التئامها و توحدها و من ثم كان من أسباب قوتها في طور التكوين و ساعد على تطورها السياسي و ازدهارها الحضاري إبان حكم الأئمة الثلاثة الأوائل .

على أن هذا الاستقرار السياسي و الازدهار الحضاري أدى إلى هجرة عناصر من إثنيات عديدة _ كالفرس و العرب من الشرق ، فضلا عن قبائل مغربية جديدة _ و استقرارها في كنف الدولة الرستمية . و الأهم ؛ أنها كانت على مذاهب أخرى _ مالكية و صفرية و اعتزالية و شيعية _ مغايرة لمذهب الدولة الإباضي .

و قد أسفرت سياسة التسامح الديني و المذهبي التي اتبعها الأئمة الأوائل عن ازدهار فكري و تلاقح مذهبي ؛ فضلا عن رواج اقتصادي نتيجة انتعاش النشاط التجاري ؛ خصوصا مع بلاد السودان الأوسط موئل تجارة الذهب و الرقيق .

بديهي أن يفضي التنافس بين الإثنيات المتعددة و أصحاب المذاهب المختلفة إلى صراع سياسي للظفر بمنصب الإمامة ؛ الأمر الذي أدى إلى " حروب أهلية " أسفرت عن ضعف الإمامة الإباضية . و زاد الطين بلة ما حدث من انشقاقات عديدة في المذهب الإباضي نفسه ؛ أسفرت عن ظهور مذاهب أخرى معارضة ؛ منها مذاهب " السمحية " و " النكار " و " النفاثية " و غيرها ؛ الأمر الذي مهد لسقوط الدولة على يد الدولة الفاطمية الجديدة .

خلاصة القول ؛ أن التعددية الإثنية و المذهبية في الدولة الرستمية كانت من أسباب ازدهارها الحضاري ، كما كانت من أسباب ضعفها السياسي ؛ خصوصا إبان سنيها الأخيرة .

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠١٧.

قامت الدولة الرستمية بالمغرب الأوسط سنة ١٦٢ه على يد عبد الرحمن بن رستم الفارسي، وسقطت على يد أبي عبد الله الشيعي – داعية الفاطميين في المغرب – سنة ٢٩٧ه. وقد استندت في قيامها إلى عصبية تمثلت في حلف قبلي ترأسته قبيلة لماية، ودعوة مذهبية تمثلت في المذهب الخارجي الإباضي. وكان سقوطها منوطا بعصبية تمثلت في قبيلة كتامة ودعوة مذهبية قوامها المذهب الشيعي الإسماعيلي.

لبرهنة هذا التصور؛ لا مناص من التعريف – ولو بإيجاز – بنظرية ابن خلدون بصدد قيام الدول وسقوطها.

عن دور العصبية يقول ابن خلدون : " لما كانت الرئاسة بالغلب؛ وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصبيات ليقع الغلب بها، وتتم الرئاسة لأهلها... ولا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فرع إلى فرع منهم، ولا تنتقل إلا إلى الأقوى من فروعه". (١)

وهذا يعني أن قوة العصبية هي الأساس في قيام الدولة واستمرارها؛ بحيث تتمكن من السيطرة على العصبيات الأخرى داخل الدولة؛ فتدين لها بالطاعة "و الإذعان والاتباع ".(٢) "فسيادة العصبية المؤسسة لا تتم إلا بالقوة والغلبة على كافة العصبيات الأخرى؛ ثم إندفعت بالوازع الفطري إلى السلطة" (٣).

أما الدعوة الدينية – أو المذهبية – فمن شأنها أن تجمع شمل فروع العصبية – وقد تنضم إليها عصبيات أخرى في صورة ائتلاف أو تحالف – بتحقيق التعاون والتضافر؛ " فتذهب بالتنافس والتحاسد...فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم؛ لم يقف لهم شيء؛ لأن الوجهة واحدة، والمطلوب متساو عندهم."(٤). عندئذ يحل الدين أو المذهب محل التعصب القبلي، والشريعة محل النزعة القبلية.(٥) وهو ما يفسر تاريخ المغرب الإسلامي الذي كان في – الغالب – نتاج التكامل بين العصبية والدعوة المذهبية. فبفضل هذا التكامل " تحول البربر المتشرذمون إلى مؤسسي دول، وبناة حضارة، ومشيدي عمران."(٦)

إسترشادا بنظرية ابن خلدون تلك؛ نؤكد أن قيام الدولة الرستمية تأسس بداية على عصبية قبيلة لماية، ثم على حلف قبلي بينها وبين قبائل نفوسة وهوارة ولواتة وسدراتة وزناتة وغيرها.(٧) وما كان لهذا الحلف أن يلتئم دون اعتناق تلك القبائل المذهب الإباضي قبل قيام الدولة. إذ اعتنقته على يد الداعية سلمة بن سعيد الذي وصل إلى المغرب أوائل القرن الثاني الهجري؛ فنزل القيروان، ودعى شيوخ القبائل سرا، وأقنعهم باعتناقه، ثم نشروه بين قبائلهم.(٨)

إنتقل الإباضية من مرحلة الدعوة إلى طور الثورة، وقدر لهم النصر – بعد معارك يطول ذكرها – فدخلوا مدينة القيروان سنة ١٤٠ه. لكن الجيوش العباسية المتتالية نجحت في طردهم منها سنة ١٥٥ه؛ فتوجهوا إلى المغرب الأوسط، وشرعوا في تأسيس الدولة.(٩)

بعد تأسيس مدينة تاهرت؛ أجمعت القبائل الإباضية على اختيار عبد الرحمن بن رستم إماما سنة ١٦٢ه. وينم اختيار إمام فارسي الأصل عن الالتزام بفقه المذهب الذي يجعل الإمامة حق لكل مسلم بغض النظر عن لونه أو انتمائه العرقي.(١٠) هذا فضلا عن تدينه وورعه وزهده وعلمه؛ بالإضافة إلى كونه " ليس له من قبيلة تمنعه إذا تغير أو تبدل "(١١)، كذا لتحاشي خلاف قد يشجر عن تنافس القبائل حول منصب الإمامة.(١٢)

شرع الإمام عبد الرحمن في إرساء دعائم الدولة؛ فعول على إشراك رؤساء القبائل في مجلس الشورى الذي حرص على تنفيذ ما يصل إليه من قرارات.(١٣) وإذ أفاد من الخبرة الفارسية في النظم والإدارة؛ حرص على عدم تعارضها مع تعاليم المذهب الإباضي؛

[١٤] فأرضى بذلك شيوخ القبائل وفقهاء المذهب. لذلك "لم ينقم عليه أحد في خصومة ولا في حكومة "،[١٥] و" لم يكن على يديه افتراق."[١٦]

خلاصة القول؛ أن سبب استقرار الدولة يعزى إلى التزام الإمام بتعاليم المذهب الإباضي من ناحية؛ وإشراك رؤساء القبائل في الحكم من ناحية أخرى.

تغير الحال خلال عهود الأئمة الذين خلفوا عبد الرحمن بن رستم؛ نتيجة الانشقاقات المذهبية، واختلال العصبية؛ إذ انفرط عقد الائتلاف القبلي بعد ظهور عناصر جديدة هاجرت من الشرق والأندلس واستقرت في تاهرت؛ الأمر الذي أسفر عن صراعات عنصرية وقبلية أفضت إلى الفوضى السياسية والنعرات العرقية. لذلك أصاب أحد الدارسين [١٧] حين قال : " أصبح تاريخ الرستميين سلسلة من الخلافات والقلاقل الداخلية". ولعل هذا المؤرخ استخلص هذا الحكم من قول أحد المؤرخين القدامى [١٨] بأن " الإمامة أصبحت مطمعا للطاعنين والظاعنين ". ويقصد بالطاعنين المشككين من فقهاء المذهب الإباضي في مشروعية حكم الأئمة؛ نظرا لتحول الإمامة إلى ملك وراثي. كما يقصد بالظاعنين القبائل الأمازيغية التي انتزت وخرجت على حكم بني رستم.

لإيضاح ذلك؛ لا مناص من رصد الخريطة الإثنية والفسيفساء المذهبية في تاهرت على النحو التالي.

إحتضنت تاهرت غالبية من قبائل البربر البتر والبرانس على السواء. من أهمها قبيلة زناتة التي اعتبرها جوتييه[١٩] أكثر القبائل ثقلا في توجيه الأحداث الداخلية بالعاصمة.

كانت زناتة من بربر البتر البداة الذين كانوا في صراع دائم مع بربر البرانس المتحضرين؛ ومنهم قبائل نفوسة وهوارة ولماية ولواتة وسدراتة التي يعزى إليها الفضل في تكوين الائتلاف القبلي الذي شكل عصبية الدولة في عهد إمامها المؤسس عبد الرحمن بن رستم. وقد هالها استبداد زناتة في عهد ابنه عبد الوهاب؛ " فاتخذت العين والخيول، ونالها من الكبر ما نال أهل تاهرت "[٢٠] بهدف مواجهة زناتة.

في هذا الصدد؛ تصدت نفوسة لزناتة للحفاظ على مكانتها المرموقة التي حظيت بها في عهد عبد الرحمن إذ أسند إليها وظائف القضاء والحسبة وولاية بيت المال.[٢١]

أما العناصر الوافدة التي استقرت بتاهرت؛ فمنها الفرس الذين قدموا من الشرق، وأسهموا في تنظيم شئون الإدارة ورسوم البلاط. وبديهي أن يتعاظم نفوذهم إلى حد ملاحظة أحد الدارسين [٢٢] بأنهم "شكلوا دولة داخل الدولة ".

وإذ تولت نفوسة مهمة الدفاع عن الدولة؛ فقد اتخذ الأئمة حرسهم الخاص من أفراد أسرتهم الحاكمة؛ ممن عرفوا لذلك ب"الرستمية".

من العناصر الوافدة أيضا الجند العربي القادم من القيروان هربا من أمراء بني الأغلب؛ وذلك بعد إخفاق تمردهم عليهم؛ فنزلوا بمكان على مشارف تاهرت. أما العرب الوافدون من الأندلس؛ فقد استقروا داخلها. للإفادة من خبرتهم في مجال الحرف والصناعات.[٢٣]

كما وجد بتاهرت أقلية من اليهود الذين عاشوا في أحد أحياء تاهرت المعروف ب" حي الرهدانية". وقد حظوا برعاية الأئمة نظرا لاشتغالهم بالتجارة الخارجية؛ فضلا عن الصيرفة وبعض الحرف الهامة.[٢٤]

أما عن الرقيق السود المجلوبين من أفريقيا جنوبي الصحراء؛ فقد قاموا بحراسة قوافل التجار إلى بلاد السودان الأوسط والغربي؛ فضلا عن السخرة في العمل الزراعي والرعوي والخدمات المنزلية. ولم يكن لهم ولليهود دور فيما وقع من صراعات إثنية.

**أما عن الخريطة المذهبية؛ فيمكن رصد معالمها على النحو التالي.**

كان المذهب الإباضي هو السائد بين السكان في البدو والحضر. وينسب هذا المذهب إلى عبد الله بن إباض التميمي الذي أخفق في معاركه مع الأمويين في الشرق؛ لكنه انتشر في المغربين الأدنى والأوسط وإفريقية بفضل جهود داعيته سلمة بن سعيد؛ كما أوضحنا من قبل. وتتسم معتقدات الإباضية بالاعتدال؛ حيث كانت أقرب إلى فكر أهل السنة والجماعة.(٢٥) بل إن فكره السياسي ينطلق من شريعة الإسلام أساسا؛ خصوصا في مسألة الإمامة. فبينما يقصرها الشيعة على أبناء على وفاطمة، والسنة على قبيلة قريش؛ جعلها المذهب الإباضي حقا متاحا لجميع المسلمين بغض النظر عن أصولهم العرقية. وإذ أجاز المذهب حق الثورة على أئمة الجور؛ فقد تفرد – دون كافة المذاهب الأخرى – في عدم تكفير الخصوم؛ فأجاز مناكحتهم وموارثتهم. وفي حروبهم مع المخالفين؛ تفردوا كذلك بغنيمة السلاح فقط؛ دون انتهاب الأموال، وسبي النساء والأطفال. كما حرصوا على إعلام الخصوم بالقتال بعد إقامة الحجة عليهم، وحرموا القتل غيلة؛ فلم يتبعوا المدبر بعد تحقيق الانتصار. (٢٦)

على الرغم من مما جرى من معارك دموية بين الإباضية والصفرية سنة ١٤٠ه في إفريقية، سمح أئمة بني رستم بوجود أقلية من الخوارج الصفرية للعيش في كنف دولتهم. بل إن عبد الرحمن بن رستم عقد مصاهرة مع اليسع بن مدرار – أمير سجلماسة الصفري – حيث تزوج ابنه ميمون من أروى ابنة عبد الرحمن بن رستم. كما سمح عبد الرحمن بأن يدفع الصفرية في دولته زكاة أموالهم إلى أمراء بني مدرار. (٢٧)

برغم العداء التقليدي بين الخوارج عموما وبين الشيعة؛ وجدت أقلية من الشيعة الإسماعيلية في الدولة الرستمية؛ أطلق عليهم نعت "الكوفيين". وسمح لهم بالصلاة في مساجدها؛ باستثناء المسجد الجامع بتاهرت.(٢٨)

كما عاش بمدينة أيزرج الرستمية نحو ثلاثين ألفا من المعتزلة، تمتعوا كذلك بتسامح الأئمة، وكان معظمهم من قبيلة زناتة.(٢٩) إذ منحوا نوعا من الاستقلال؛ " فكان عليهم رئيس عادل، وعدلهم فائق، وسيرتهم جيدة ". (٣٠)

ومن السنة المالكية؛ وجدت أقلية من العرب والبربر الوافدين من إفريقية والأندلس. لعل من أشهرهم المؤلف ابن الصغير المالكي الذي أرخ لدولة بني رستم تأريخا يتسم بالموضوعية. ولا غرو؛ فقد اقتنى دارا فاخرة بحي الرهدانية بتاهرت، وصادق الأئمة الرستميين الأواخر؛ فأثنى على بعضهم وانتقد سياسة البعض الآخر. كما ناظر بعض شيوخ الإباضية والمعتزلة دونما تحفظ أو حرج.(٣١)

تلك – باختصار – هي المذاهب والفرق التي عاشت بحرية في الدولة الرستمية؛ رغم تصدي معظمها لمعارضة أئمتها، وحمل بعضها السلاح ضدهم؛ كما هو حال المعتزلة.

أما عن أسباب المعارضة؛ فتعود إلى تخلي معظم خلفاء عبد الرحمن بن رستم عن تعاليم المذهب الإباضي، واتباع سياسات عملية؛ ومكيافيللية أحيانا، كالتجسس، وإحداث الفرقة بين القبائل، والانحياز إلى بعض العناصر على حساب البعض الآخر. من هذه الأسباب أيضا ولاء بعض الفرق لقوى خارجية – كالأغالبة والمدراريين والأدارسة – وطموحها إلى إسقاط الإمامة الرستمية.

فإبان عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم؛ إنحاز إلى أخواله من زناتة – التي تدخلت في توليته الإمامة قسرا؛ على الرغم من وصية والده باختيار الإمام بالشورى بين سبعة من فقهاء المذهب الإباضي. وبعد تعيينه ألغى مجلس المشورة الذي كونه والده من

شيوخ الإباضية ورؤساء القبائل؛ وبذلك تحولت الإمامة إلى ملك وراثي مستبد.[٣٢] والأنكى أن عبد الوهاب رفض اختيار قبيلة نفوسة لعاملها خلف بن السمح بن أبي الخطاب[٣٣] – حفيد أبي الخطاب بن السمح المعافري أول أئمة الدفاع في طرابلس الذي يعزى إليه فضل الانتصارات الإباضية على جيوش العباسيين إبان مرحلة الثورة، وقبل قيام الدولة – فحرم على النفوسيين ما أحله لنفسه.[٣٤]

لذلك – وغيره – أنكر بعض شيوخ المذهب الإباضي إمامة عبد الوهاب بزعامة يزيد بن فندين؛ فعرفوا لذلك ب"النكار"؛ بينما أيدها بعضهم الآخر؛ فحدث ما عرف باسم " الانشقاق الإباضي الأول"؛ حيث عرف أتباع عبد الوهاب ب " الوهبية ".

تدخل إباضية الشرق لرأب الصدع؛ دون طائل.[٣٥] فاندلع القتال بين الوهبية والنكار، وانتهى بانتصار الوهبية. ومع ذلك لم يجهز الإمام علي غريمه؛ بل سمح له ولأتباعه بالرحيل إلى مضارب قبيلته زواغة.[٣٦]

أما " الانشقاق الإباضي الثاني " فوقع في جبل نفوسة؛ حيث أصر سكانه على مناصرة خلف بن السمح ضد العامل الذي عينه عبد الوهاب؛ ويدعى أبو عبيدة. ودارت وقائع عديدة تبادل خلالها الطرفان الانتصارات والهزائم، ثم بايع أنصار خلف شيخهم بالإمامة،[٣٧] وتوفي عبد الوهاب سنة ١٩٠ه والأمر على هذا الحال. وعلى الرغم من طرح مسألة الخلاف على شيخ التنظيم بالبصرة سفيان بن الرحيل – بعد وفاة الربيع بن حبيب – وإفتائه " بحق الرعية في اختيار عمالها "؛[٣٨] لم يستجب الإمام أفلح بن عبد الوهاب للفتوى؛ الأمر الذي عجل بإعلان "السمحية" مذهبا جديدا معادية لمذهب "الوهبية".[٣٩]

إبان إمامة أفلح، وقع "الانشقاق الإباضي الثالث" نتيجة شططه في فرض ضرائب جديدة مغايرة للفقه الإباضي؛ الأمر الذي أدى إلى تمرد قبيلتي نفوسة وزواغة. تزعم شيخ إباضي يدعى فرج بن نصر المتمردين – أطلقت عليه المصادر الإباضية الوهبية إسم "نفاث"؛[٤٠] كناية عن نفثه سموم العداء ضد الإمام – وكان متعمقا في العلوم الدينية. لذلك طالب الإمام بإلغاء الضرائب والاحتكام إلى الفقه الإباضي؛ فتخلى عنها عندما أدرك خطورة الموقف في الأقاليم الشرقية من الدولة؛ شريطة مغادرة نفاث البلاد؛ فاستجاب له، وتوجه إلى العراق حقنا للدماء؛[٤١] ومع ذلك ظل مذهبه قائما حتى عودته – فيما بعد – إلى تاهرت.

كان الإمام أفلح من الذكاء كي تستقر أحوال الدولة؛ فعول على العودة بالمذهب الإباضي في سياسته. إذ يحمد له إحياء "مجلس المشورة"[٤٢]، والالتزام بنصيحة شيخ إباضية الشرق في "حق الرعية في اختيار عمالها"، وتوجيه النصح لهم بتحري العدالة في جباية الضرائب الشرعية. كما أتاح لهم مزيدا من السلطات داخل عمالاتهم؛ معولا على اللامركزية في الحكم.[٤٣] في الوقت ذاته استخدم الدهاء والحيلة للإيقاع بين القبائل؛ حتى يتحاشى اجتماعها ضده. لذلك "لم يبق في أيامه منازع، ولا أجمع جهاته إلا طالع".[٤٤] ولم يخطئ جورج مارسيه[٤٥] حين "اعتبر عهده بمثابة العصر الذهبي للدولة الرستمية". لذلك أيضا؛ كان أفلح بن عبد الوهاب آخر الأئمة الرستميين الذين اعترف شيوخ إباضية الشرق بإمامتهم.[٤٦]

خلاصة القول أن؛ الانشقاقات المذهبية. نجم عنها تدهور الأحوال السياسية في الدولة الرستمية؛ لكن الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن ردع حركات التمرد بالقوة؛ بينما حاول ابنه أفلح مواجهتها بالحيلة، ومع ذلك لم تجد تلك المحاولات؛ لا لشيء إلا لأن التشرذم المذهبي ظل يمارس فعالياته خلال عهود الأئمة اللاحقين؛ فأسفر عن صراعات عنصرية وقبلية نعرض لها فيما يلي.

حاولت القوى الإثنية في تاهرت استثمار الانشقاقات المذهبية لإسقاط الدولة الرستمية بهدف الوصول إلى الحكم إبان عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن؛ حين حاولت قبيلة لواتة عقد ائتلاف مع قبيلة هوارة. لكن الإمام عبد الوهاب أسرع في عقد مصاهرة مع شيخ هوارة بالزواج من إحدى بناته؛ فحال بذلك دون نجاح الائتلاف، ثم محق تمرد لواتة حين أزمعت العصيان.(٤٧) كما نجح ابنه الإمام أفلح في تأجيل اندلاع الخطر دون استئصال شأفته حيت اتبع سياسة "فرق تسد" التي أجلته إلى حين.

ففي عهد ابنه أبو بكر بن أفلح تفجر الصراع الإثني لما تدخلت قبيلة نفوسة لتوليته الإمامة؛ رغم معارضة شيوخ الإباضية (٤٨)؛ لا لشيء إلا لما عرف عنه من الانغماس في الملذات. وهو ما يفسر أيضا تحالف العرب و الفرس بتاهرت، ونجاحهم في عزله وتولية أخيه أبا اليقظان محمد بدلا منه.(٤٩)

تعاظم الخطب في تاهرت نتيجة الصراع الدامي بين أنصار أفلح وأنصار أخيه حول الإمامة؛ فاندلعت حرب أهلية بين كافة القوى بالعاصمة؛ حيث استعان كل منهما بقبائله وعناصره الضاربة خارجها؛ بهدف عزلهما معا والاستئثار بالحكم؛ الأمر الذي أضعفها جميعا؛ باستثناء قبيلة هوارة التي قدر لشيخها محمد بن مسالة الفوز بالإمامة (٥٠)، وتمكن من إقرار الأمن في العاصمة إلى حين. لكن قبيلة لواتة تمكنت من خلعه وبايعت أباليقظان محمد فعاد إلى الإمامة مرة أخرى سنة ٢٦١ه.(٥١)

والحق أن أباليقظان كان جديرا بالإمامة لما اشتهر به من الورع والتقى؛ فضلا عن تعمقه في الفقه الإباضي وإحاطته بالمذاهب والفرق الدينية الأخرى.(٥٢) كما حذق فنون السياسة ووظفها في إرضاء قوى الصراع جميعا، وإعادة الأمن والاستقرار في كافة أرجاء الدولة.

يرجع ذلك إلى إعادته مجلس المشورة الذي اختار أعضاءه من رؤساء القوى الإثنية والمذهبية. كما اختار عماله على الأقاليم ممن عرفوا بالعلم والتقى، ونظر في المظالم التي قدمها عامة تاهرت، وقدم حلولا لشكاواهم. واتبع سياسة التسامح مع أتباع كافة المذاهب والفرق غير الإباضية.(٥٣) لذلك شبهه أحد مؤرخي الإباضية(٥٤) بجده عبد الرحمن بن رستم، كما حكم عليه مؤرخ(٥٥)معاصر لإمامته – سني المذهب – بقوله: "لم ينقم عليه أحد شيئا مما ولي من أفعاله".

على أن الوقائع الدامية للحرب الأهلية أضعفت كل أطراف الصراع؛ الأمر الذي أفضى إلى بروز دور أصحاب المذاهب غير الإباضية في أحداث العصر الرستمي الأخير؛ حيث تطلعوا لإسقاط الدولة الرستمية، و" تبييت خبر الإباضية".(٥٦)

بدأت إرهاصات هذا التطاول على الإمامة بثورة المعتزلة ضد الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن. إذ استهدفوا الخروج عن طاعته والانضمام لدولة الأدارسة؛ منتهزين انشغاله بمواجهة تمرد النكار.(٥٧) ومعلوم أن الاعتزال التأم بالمذهب الشيعي الزيدي فكريا وسياسيا لتأسيس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى سنة ١٧٢ه.(٥٨) بل يذهب أحد مؤرخي المعتزلة إلى أن واصل بن عطاء هو الذي وضع أصول المذهب الزيدي(٥٩).

بدأ الصراع بين المعتزلة والإمام عبد الوهاب ب :"الحرب الكلامية"؛ حيث أفحم فقهاء المعتزلة نظراءهم الإباضية. (٦٠) ثم دارت الحرب الحقيقية بين الطرفين اللذين تبادلا النصر والهزيمة، إلى أن حسمت لصالح الإمام عبد الوهاب بعد استعانته بجيش من قبيلة نفوسة.(٦١) ومع ذلك لم يستطع الإمام فل شوكتهم، فاعتصموا بمدينة أيزرج وسط أعوانهم من قبيلتي زناتة ولواتة يترقبون الفرصة المواتية للإطاحة بالإمامة الرستمية.(٦٢)

لاحت تلك الفرصة في عهد الإمام أبو حاتم يوسف – الذي تولى الإمامة سنة ٢٨١ه ثم عزل كما أوضحنا من قبل – لافتقاره إلى عصبية تسنده؛ اللهم إلا عامة تاهرت.(٦٣) لكن شيوخ المعتزلة والشيعة الإسماعيلية نجحوا في استمالة العامة إلى جانبهم.(٦٤) والأهم؛ تآمرهم لاغتيال الإمام، لكنهم فشلوا بعض افتضاح أسرار المؤامرة؛(٦٥) فاندلعت الحرب من جديد وانتهت بانتصار الإمام أبي حاتم؛ نظرا لدعم العامة له ومبايعتهم إياه بالإمامة مرة أخرى سنة ٢٨٦ه.(٦٦)

لم يهنأ أبو حاتم بالحكم طويلا؛ إذ تآمر "الرستمية" ضده وبايعوا عمه يعقوب بن أفلح بالإمامة. وآزرته "السمحية" بعد نجاح شيخها الطيب بن خلف في الاستقلال بجبل نفوسة. تآمر يعقوب بن أفلح والرستمية والسمحية لاغتيال أبي حاتم يوسف، وتم لهم ما أرادوا.(٦٧)

تولى الإمامة من بعده اليقظان بن أبي اليقظان الذي لم يستطع ممارسة سلطته؛ بل آلت عمليا إلى المعتزلة والشيعة الإسماعيلية الذين اتصلوا بأبي عبد الله الشيعي داعية الفاطميين في إفريقية – الذي أسقط دولة الأغالبة سنة ٢٩٦ه – لغزو تاهرت؛ فاستجاب لدعوتهم وقاد جيشه الذي دخل تاهرت دون أدنى مقاومة سنة ٢٩٧ه.

خلاصة القول؛ أن التعددية الإثنية والمذهبية كانت وبالا على المستوى السياسي. إذ انصرفت جهود الأئمة الرستميين لمواجهة المشكلات الداخلية عن الدفاع عن حدود دولتهم شرقا ضد الأغالبة الذين اقتطعوا بعض المدن والبوادي في إقليم الجريد، ونكلوا بسكانها الإباضية؛ دون أن يحرك الإمام ساكنا.(٦٨) بالمثل؛ تمكن الأدارسة من سلخ مدينة تلمسان وما جاورها شمالا وغربا عن نفوذ بني رستم الذين تقاعسوا عن استردادها.(٦٩) وفي الحالين معنا؛ كانت الانشقاقات المذهبية والصراع الإثني داخل الدولة الرستمية أهم أسباب ضعفها وخذلان أئمتها.(٧٠)

على العكس من ذلك؛ تمخضت التعددية الإثنية والمذهبية عن نتائج إيجابية على الصعيد الحضاري؛ وهو ما سنحاول إثباته بصدد نظم الحكم، والحياة الإقتصادية، والاجتماعية والثقافية. وإذ استرشدنا بأفكار ابن خلدون بصدد الأحوال السياسية؛ سنحاول الإفادة من أفكار صاعد الأندلسي؛ فيما يتعلق بالجانب الحضاري.

ما أكثر ما كتبه علماء ومؤرخو الإسلام في علم الإثنولوجيا؛ فمنهم – على سبيل المثال – المسعودي وابن حزم والبيروني الذين أرخوا للعناصر والأجناس الذين عاشوا في كافة أقاليم " دار الإسلام "؛ كالعرب والفرس والأتراك والبربر والأكراد والأرمن والزنج وغيرهم. لكن الفضل يعزى إلى صاعد الأندلسي في تحويل الإثنولوجيا إلى علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية؛ وهو علم لم تعرفه البشرية إلا في العصر الحديث.

مما يؤكد سبق صاعد وريادته – في هذا الصدد – إهتمامه برصد إنجازات الأمم والشعوب في مجال العلوم والآداب والفنون . والأهم جعل من تلك الإسهامات معيارا لتثمينها؛ إذ صنفها إلى صنفين؛ صنف "ظهرت منه ضروب العلوم، وصورت فيها فنون المعارف"، وآخر"لم يعن بالعلم... فلم ينقل عنه فائدة حكمة، ولا رويت به نتيجة فكرة "(٧١). والأهم؛ وقوفه على "المشترك الإنساني" بين الأمم والشعوب المتحضرة؛ كرؤية لم يقف عليها أهل الفكر إلا في العصر الحديث.

ما يعنينا – بصدد موضوع الدراسة – هو الوقوف على رؤية صاعد الأندلسي عن الأمم المتحضرة ذات الصلة بالإثنيات التي عاشت في كنف الدولة الرستمية، والتي تمثلت في العرب والفرس واليهود.

بخصوص العرب؛ عرض لمواطنهم قبل الإسلام، وقسم قبائلهم إلى"أهل وبر" و"أهل مدر"؛ سابقا ابن خلدون في هذا الصدد. كما عرض لعقائدهم الدينية؛ مؤكدا إيمانهم ب"التوحيد"؛ فلم تكن الأصنام إلا مجرد وسيلة أو وسيط للتقرب إلى الله. وعن إسهامات

العرب حضاريا، أشاد بعرب اليمن وبراعتهم في علوم الفلك والأنساب؛على سبيل المثال. وفي ظل الإسلام؛ رصد دور العرب في نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة، وتشجيعهم للعلم والعلماء والأدباء والشعراء في كافة البلاد التي فتحوها؛ موضحا المشاهير منهم في المشرق والمغرب.(٧٢)

أما عن الفرس؛ فاعتبرهم "صفوة الله في خلقه، وخلاصته من عباده؛ لأنهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة الصانعة لنوع الإنسان، والمقومة لطبعه".(٧٣) كما عرض لمظاهر وأسباب تحضرهم منذ القدم، كذا لدورهم في بناء الحضارة الإسلامية؛ مع ذكر أعلام علمائهم؛ فضلا عن تفردهم في مجال "حسن السياسة والتدبير".(٧٤)

كما عرف باليهود أنثروبولوجيا؛ مبرزا دورهم في إثراء "علوم الشريعة وسيرة الأنبياء"(٧٥) قبل ظهور الإسلام. كذا إسهاماتهم في مجال العلوم والآداب والفلسفة (٧٦)؛ عارضا لأسماء علمائهم وإنجازاتهم التي تأثر بها العلماء المسلمون؛ خصوصا في مجال الفلك والتاريخ والفلسفة.(٧٧)

سنحاول الاسترشاد بتلك الرؤية التقدمية لصاعد الأندلسي في تبيان إيجابيات التعددية في حضارة بني رستم.

في مجال نظم الحكم؛ سبق إيضاح ما انطوى عليه المذهب الإباضي من اعتدال وتسامح ونزعة إنسانية وقيم أخلاقية. فرأي الإباضية في الخلافة يجعل منهم "جمهوريو الإسلام"(٧٨) بلا منازع. كما تفردوا بين كافة الفرق في قولهم بمشروعية الثورة على الجائرين من الحكام؛ فكانوا لذلك – في نظر البعض – (٧٩) "بولشفيك الإسلام". لذلك صدق من قال بأنهم "لم يطلبوا الخلافة لنزعة ملك أو رياسة"(٨٠)؛ بقدر تطلعهم لتحقيق العدالة والمساواة.

تفرد الإباضية أيضا بعدم تكفير المخالفين(٨١) في المذهب؛ ومن ثم كانت حروبهم للدفاع عن حدود دولتهم ليس إلا؛ بل كثيرا ما تهاونوا في ردع المعتدين تحاشيا لسفك الدماء. ولم يؤثر عنهم سبي الأطفال والنساء، ولا تخريب المزارع والديار.(٨٢)

أما عن نظمهم الإدارية والمالية التي وضعها مؤسس الدولة عبد الرحمن بن رستم؛ فكانت مستوحاه من تعاليم المذهب الإباضي وفقهه؛ فضلا عن الأعراف القبلية؛ مع الإفادة من خبرات الفرس.(٨٣) لذلك أثنى ابن الصغير المالكي(٨٤) على سياسته بقوله "...وقضاته مختارة، وبيوت أمواله ممتلئة، وأصحاب شرطته والطائفون به قائمون بما يجب". ولا غرو؛ فقد حظي حكمه بتأييد شيوخ المذهب ورؤساء القبائل وإباضية الشرق الذين "وصلوه بكتبهم ووصاياهم" (٨٥).

على أن تلك السياسة الرشيدة ضرب بها عرض الحائط في عهود الكثيرين من الأئمة؛ وذلك بعد تحول الإمامة المؤسسة على مبدأ الشورى إلى ملك وراثي. لذلك اندلعت عدة ثورات إثنية وانشقاقات مذهبية لم تتوقف إلا بعد عودة بعض الأئمة إلى اتباع سياسات عبد الرحمن بن رستم، (٨٦) كما هو الحال بالنسبة للإمام أفلح بن عبد الوهاب(٨٧) وابنه أبي اليقظان محمد(٨٨). مع ذلك؛ لم تجد سياسة الإصلاح في مجتمع مزقته المحن والثأرات في وقت لم يكن للأئمة إبانه جيش قادر على ردع المتمردين؛ بينما "كان لكل قبيلة رجالها وخيلها وسلاحها وكراعها"(٨٩) وذلك في عهود الأئمة الأواخر الذين لم يكن لهم من السلطة إلا الإسم. إذ آلت إلى عامة العاصمة ورؤساء الفرق غير الإباضية؛ كما أوضحنا من قبل. وضاعت نداءات الأئمة للرعية بالتزام الطاعة سدى؛ فلجأوا إلى الأساليب "المكيافيللية" كالتجسس والإغراء بتولي المناصب، والرشوة، والخداع؛ بل لم يتورعوا عن اتباع أسلوب الاغتيال السياسي للتخلص من المناوئين.(٩٠)

خلاصة القول؛ أن التعددية الإثنية والمذهبية كانت ذات مردود إيجابي في أوائل سنى الدولة، ثم أصبحت في أخريات عمرها من أهم أسباب ضعفها ثم سقوطها.

بخصوص الحياة الاقتصادية؛ نلاحظ أن الدولة الرستمية – شأنها شأن الدول المستقلة المعاصرة لها في بلاد المغرب – ورثت كسادا اقتصاديا تمتد جذوره إلى زمن الفتح الإسلامي الذي استغرق ما يزيد على سبعين عاما، عم خلالها الخراب والدمار. وزاد الطين بلة سياسة ولاة بني أمية المشتطة؛ حيث صودرت معظم الأراضي الزراعية، وما بقي منها بيد مالكيها جري استنزاف غلتها من جراء مضاعفة الضرائب الشرعية، وفرض مغارم وجبايات إضافية. ونجم عن ذلك اندلاع ثورات البربر الذين اعتنقوا مذهب الخوارج، والتي استمرت قرابة خمسين عاما أهلكت خلالها الزرع والضرع؛ فحلت المجاعات بالسكان وتبعتها الأوبئة والطواعين التي حصدت المزيد مم الأرواح.[٩١] وإذ حاول بعض ولاة العباسيين الإصلاح؛ فلم تجد جهودهم نفعا؛ لا لشيء إلا لمواصلة البربر الخوارج ثوراتهم. إذ احتدت الأزمة المالية إلى حد استعانة الولاة بنظرائهم في مصر لتقديم معونة سنوية بلغت مائة ألف دينار؛ لدفع رواتب الجند والجهاز الإداري والقضائي[٩٢].

تغير الحال بعد قيام الدول المستقلة؛ فشهدت بلاد المغرب ازدهارا ورواجا إقتصاديا نتيجة توقف "النهب المنظم" من قبل الولاة الأمويين والعباسيين من ناحية، وجهود حكام تلك الدول في استغلال مقدراتها الطبيعية لصالح سكانها من ناحية أخرى.

لذلك ازدهرت الحياة الاقتصادية في دولة بني رستم؛ على الرغم من قيامها في رقعة جغرافية معظمها في نطاق الصحراء الكبرى. ولعل هذا الموقع يفسر استعانة مؤسس الدولة – عبد الرحمن بن رستم – بإباضية الشرق للحصول على الأموال اللازمة لمواجهة أعباء الدولة الجديدة. وقد جري استثمارها في إتمام بناء عاصمتها تاهرت، كذا في مشروعات إستثمارية في مجال الزراعة والرعي والتعدين والصناعة. وفي هذا المجال قام الفرس بدور هام في استغلال مياه الوديان – وادمينة ووادتاتش – بشق القنوات وإقامة الجسور لري رقعة زراعية واسعة. كما استغلوا مياه الأمطار الغزيرة في المناطق الجبلية الشمالية لنفس الغرض.[٩٣] ناهيك عن براعتهم في تأسيس المدن الصحراوية – مثل ودان وأوجله وزالة وغدامس [٩٤] – للانطلاق منها لبلاد السودان الأوسط والغربي للحصول على الذهب والرقيق.

لذلك ازدهرت الزراعة؛ فاشتهرت البلاد بإنتاج الحبوب والكتان والسمسم؛ فضلا عن غروس الفاكهة وأشجار النخيل والزيتون وغيرها في الواحات الجنوبية بعد حفر الآبار لتوفير مياه الري[٩٥].

بالمثل؛ ازدهرت حرفة الرعي في المناطق الزراعية والجبلية [٩٦]؛ حيث اشتهرت دولة بني رستم بأنها "أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين"[٩٧].

كما ازدهرت الصناعة بفضل خبرة الفرس والوافدين من عرب وبربر الأندلس؛ فضلا عن اليهود الذين كانوا على دراية بأعمال التعدين وتصنيع التحف والأدوات المعدنية. كما ازدهرت صناعة المنسوجات الصوفية والكتانية والحريرية، والزجاج والخزف والعطور وسك النقود[٩٨].

بديهي أن تروج مهنة التجارة نتيجة ازدهار الزراعة والصناعة. وقد تولى الأئمة الإشراف عليها بغية الكسب الحلال. ولا غرو؛ فقد غصت كتب الفقه الإباضي بمعلومات ضافية في هذا الصدد[٩٩]، تمجد الاشتغال بالتجارة، وتحرم الربا.

لذلك؛ حوت تاهرت أعدادا غفيرة من تجار الشرق والأندلس؛ فضلا عن المغاربة؛ خصوصا بعد إعفاء الأئمة الرستميين التجار من المكوس والرسوم [١٠٠] من ناحية، وشهرة تجارها لما اكتسبوه من خبرة وثراء من خلال اتجارهم مع بلاد السودان؛ موئل الذهب

والرقيق الأسود؛ من ناحية أخرى[١٠١]. ناهيك عما قدمته من خدمات كبناء الفنادق الفخمة والأسواق العامرة، وتعبيد الطرق وحراستها[١٠٢]. واشتهرت أسواق المدن الرستمية بالرقابة الصارمة من قبل المحتسبين الذين حالوا دون استشراء الغش والتدليس. لذلك ارتادها تجار اليهود الرهدانية الذين حرصوا على تأسيس حي لهم في العاصمة [١٠٣]؛ كناية عن اهتمامهم بالمكاسب التي تدرها تعاملاتهم مع التجار الرستميين.

إنعكس الازدهار الإقتصادي في دولة بني رستم على رخاء رعاياها؛ فقال عنهم ابن الصغير [١٠٤] – الذي عاش في تاهرت – "علت وجوههم سيماء الحضارة والرفاهية، وبدت محياهم تحمل آثار النعمة والغنى ".

خلاصة القول؛ أن ازدهار الحياة الاقتصادية في الدولة الرستمية – على هذا النحو – خفف من غلواء الصراع العنصري والمذهبي. وتلك حقيقة تنسحب على كل المجتمعات في كل العصور؛ بشهادة أحد مؤرخي التاريخ الاقتصادي المرموقين[١٠٥].

بديهي أن يؤثر هذا الرخاء الاقتصادي على الأحوال الاجتماعية بدرجة ملحوظة. وهو ما أكدته مقولة ابن خلدون[١٠٦] : "يختلف الناس في عوائدهم ونحلهم باختلاف حظهم من المعاش ". وليس أدل على ذلك من سيادة روح التسامح داخل مجتمع متعدد المذاهب الدينية والأعراف الإثنية [١٠٧]. وساعد علي ذلك اعتناق غالبية السكان المذهب الإباضي الذي يتسم بالاعتدال العقدي والتسامي الأخلاقي. وانعكست تلك المعتقدات على ما اشتهر به المجتمع الرستمي من ميل إلى المسالمة وعدم سفك الدماء، على الرغم من احتوائه عناصر ورثت غريزة العداء بالفطرة. مصداق ذلك؛ يكمن في التعايش بين البربر البتر والبربر البرانس. كذا بين العرب القيسية والعرب اليمانية[١٠٨]. كذا بين العرب وبين الفرس؛ وبين اليهود والمسلمين. ناهيك عن الوئام بين أعداد غفيرة تنتمي إلى مذاهب دينية يكفر بعضها البعض الآخر في كافة أقاليم "دار الإسلام"؛ وإلى الآن.!!

لا ننكر أن العرض السابق يشي بوقوع صراعات مذهبية وإثنية سالت بسببها الدماء. لكنه يثبت أيضا أنها جرت لأسباب سياسية بامتياز، وأنه بانصرام "الظرف السياسي يختفي الصراع؛ بدليل أن كافة الرعايا شاركوا في العمران والبناء [١٠٩]؛ كل فيما يسر له. ولا غرو؛ فقد تحول المجتمع الرستمي برمته من البداوة إلى التحضر.[١١٠]

مصداق ذلك؛ ما جري من تنافس في بناء القصور داخل تاهرت وخارجها. وبدلا من رعي الأغنام والماشية "اتخذ البدو الخيل المسومة؛ وتعددت اللغات والأزياء"[١١١]. وحتى الأئمة الذين جبلوا على الزهد والبساطة؛ إنصرفوا إلى حياة الدعة والرفاهية؛ فاقتنوا الجواري والغلمان والعبيد والحشم[١١٢]، كما لم يتورع بعضهم عن مخالطة العوام[١١٣].

على أن الثراء والبذخ ما لبث أن تمخض عن ظهور أمراض إجتماعية وبيلة؛ مثل "اتخاذ الغلمان أخدانا "، وجري "الاعتداء على الحرائر" و "ظهر المنكر، وكثر الفسق وشرب الخمر" [١١٤]. قصارى القول؛ "فسد البلد وفسد أهلها"؛ على حد تعبير ابن الصغير[١١٥]. في هذا المناخ المستحدث؛ ضاعت صرخات فقهاء المذهب الإباضي سدى بعد تردي الحال على هذا النحو.[١١٦]

أما عن وضعية المرأة الرستمية؛ فقد تمتعت النساء بمكانة مرموقة خصوصا من اشتغلن منهن بطلب العلم، وحازت بعضهن شهرة في علم الفلك والتنجيم [١١٧]. أما البعض الآخر؛ فقد آثرن حياة التهتك والمجون في أواخر العصر الرستمي. كما كما قامت بعض نساء البيت الرستمي الحاكم بدور سياسي بطريق مباشر أو غير مباشر؛ خصوصا في عهود الأئمة الأواخر. وحسبنا الإشارة إلى أن والدة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم كانت من وراء فوزه بالإمامة؛ حيث حضت شيوخ قبيلتها – زناتة – على حسم الموقف

لصالحه. كما نعلم أن "غزالة" زوجة أبي اليقظان محمد هي التي استمالت عوام تاهرت لبيعة ابنها أبي حاتم يوسف بالإمامة؛ رغم معارضة "الرستمية". ولما اغتيل أبو حاتم، إنتقمت ابنته "دوسر" لمقتله باستدعاء أبي عبد الله الشيعي – داعية الفاطميين بإفريقية – للقصاص من قاتليه. وتم لها ما أرادت بقدومه إلى تاهرت وإسقاطه دولة بني رستم سنة ٢٩٧ه.

خلاصة القول؛ أن المجتمع الرستمي شهد تحولات وانعطافات ومتغيرات؛ بعضها إيجابي والبعض الآخر سلبي. وفي الحالين معا؛ كان العاملان المذهبي والاقتصادي يشكلان لحمتها وسداها.

أما عن أثر التعددية الإثنية والمذهبية في الحياة الثقافية؛ فكانت ضمن أسباب ازدهارها إلى جانب عوامل أخرى. منها إعتدال المذهب الإباضي الذي كان إديولوجية السواد الأعظم من السكان؛ إذ تميز عن المذاهب الخارجية الأخرى بفتح باب الاجتهاد. مثال ذلك؛ قبول "المهاجرة"[١١٨] – أي الذين تركوا مذاهبهم ورغبوا في اعتناق المذهب الإباضي – إذ كانت المذاهب الخارجية الأخرى لا تسمح بقبولهم إلا بعد إجراء اختبارات قاسية، لم يأخذ الإباضية بها. وقد أتاح ذلك ازدياد أعداد الأعوان والأنصار؛ الأمر الذي كانت الدولة آن قيامها في مسيس الحاجة إليهم.

منها أيضا؛ ما اشتهر به الأئمة من تحصيل المعارف الدينية والدنيوية وحض الرعية على التعلم؛ خصوصا فيما يتعلق بالمذهب الإباضي وكافة المذاهب الأخرى. وحسبنا الإشارة إلى أن الفقه الإباضي ينص على أن يكون من يتولى الإمامة عالما. وحسبنا أن عبد الرحمن بن رستم كان من"حملة العلم الخمسة" إلى بلاد المغرب؛ حيث قضي خمسة أعوام في رحاب التنظيم الإباضي بالبصرة، درس خلالها أصول المذهب الإباضي وفروعه؛ فضلا عن علوم السير والتوحيد والشريعة وآراء الفرق؛ إلى جانب علوم اللغة والفلك والرياضيات[١١٩].

أما الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن؛ فله مصنفات في فقه المذهب؛ منها كتاب "مسائل نفوسة" [١٢٠].وأثر عن الإمام أبو بكر بن أفلح شغفه بعلمي الفلك والتاريخ؛فضلا عن الأدب [١٢١]. أما أخوه الإمام أبو اليقظان محمد فكان ذا ثقافة موسوعية حصلها في سجنه ببغداد؛ إذ قبض عليه أثناء أدائه مناسك الحج؛ ثم أفرج عنه وعاد إلى تاهرت.

ليس أدل على اهتمام الأئمة الرستميين بالعلم وأهله من تأسيس "المكتبة المعصومة" بتاهرت التي حوت نحو ثلاثمائة وثلاثين ألف مجلد في عهد عبد الرحمن بن رستم [١٢٢]. أضيف إليها المزيد خلال إمامة عبد الوهاب ومن بعده إبنه أفلح ومن بعده ابنه أبي اليقظان محمد الذين زاروا العراق، وعادوا بأحمال من الكتب[١٢٣] في شتى صنوف المعرفة الدينية والدنيوية. وقد أثر عن الإمام عبد الوهاب أنه خصص في بلاطه مكانا للقاء العلماء وطلاب العلم [١٢٤].

لذلك حرص علماء الإباضية في البصرة وعمان على زيارة تاهرت للتدريس في "حلقاتها" العلمية. كما أوفد أئمتها بعوثا من الطلبة لتلقي العلم على فقهاء المذهب بالشرق [١٢٥]. وكانت مواسم الحج ملتقى العلماء الإباضية المشارقة والمغاربة [١٢٦]. كما كانت مصنفات إباضية الشرق تدرس للطلبة في تاهرت[١٢٧].

لذلك أنجبت الدولة الرستمية أعلاما مرموقين في العلوم الدينية والدنيوية؛ تزخر بأسمائهم ومؤلفاتهم كتب الطبقات الإباضية. منهم على – سبيل المثال – الشيخ مهدي النفوسي وابن يانس وأبو الحسن الأبدلاني ويعقوب بن سيلوس وعبد العزيز بن الأوز[١٢٨] وغيرهم ممن خلفوا تراثا معرفيا ثمينا. وليس أدل على تنوع انتماءاتهم العرقية من كتابة معظم المؤلفات بالعربية، وبعضها بالفارسية ولغات البربر [١٢٩]؛ بما يشي بالتعددية

الفكرية، وحرية التعبير، والتسامح، والانفتاح على ثقافة "الأغيار"؛ حتى لو كانوا مختلفين في المذهب أو خصوما في السياسة.

مصداق ذلك؛ إنفاد بعوث من طلبة العلم إلى القيروان وقرطبة. بما ينم عن التواصل العلمي والثقافي.ففي الوقت الذي طرد فيه الفقيه المالكي طلبة العلم من الإباضية، وبدد حلقاتهم [١٣٠]، سمح الأئمة الرستميون للمالكية في تاهرت بتولي المناصب العامة [١٣١]. كما لم يمنعوا ابن الصغير المالكي من مناظرة فقهاء الإباضية بتاهرت[١٣٢]. وإذ اضطهد الحكم بن هشام الإباضية في الأندلس [١٣٣]؛ كان أحد أبواب مدينة تاهرت يحمل إسم باب الأندلس، كما حظي تجار الأندلس بمكانة خاصة عند أئمة تاهرت [١٣٤].

أما عن المعتزلة في دولة الرستميين؛ فعلى الرغم من تمردهم في عهد الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن؛ أمر أحد فقهاء الإباضية بمناظرة شيوخهم، ومقارعتهم الحجة بالحجة [١٣٥]؛ وسمح لهم بدفع زكاة أموالهم إلى شيوخهم بدولة الأدارسة.[١٣٦]

تمتع الشيعية الإسماعيلية – بالمثل – بتسامح أئمة تاهرت؛ وحسبنا أن خطب الإمام علي بن أبي طالب كانت تتلى على منابر المساجد في تاهرت. [١٣٧]

بديهي أن يحظي زعماء الفرق الإباضية المناوئة لحكم الأئمة – كالنكار والنفاثية والسمحية – بالتسامح أيضا؛ على الرغم من امتشاقهم السيف وهزيمتهم في معارك حربية عديدة؛ إذ كان من الطبيعي قتلهم باعتبارهم رؤوس فتن شككوا في مشروعية إمامتي عبد الوهاب بن عبد الرحمن وابنه أفلح من بعده. لكن الإمام عبد الوهاب سمح لشيخ النكار يزيد بن فندين وجماعته بمغادرة تاهرت والعودة إلى مضارب قبيلته. أما الثائر نفاث؛ فكان عقابه مجرد أمره بمغادرة البلاد إلى العراق ليس إلا. أما عن خلف بن السمح الذي أعلن نفسه إماما؛ فكان جزاؤه ليس أكثر من تركه وشأنه وسط جماعته بجبل نفوسة بعد عزله من منصبه.!! [١٣٧]

لذلك – وغيره – لم يخطئ أحد قدامى المؤرخين حين أشاد بالتعددية الفكرية في الدولة الرستمية بقوله " كثرت الآراء والأقوال، وانتحل البحث في المذاهب، وعظم الجدل بين الفرقاء "[١٣٨]. وحق لآخر الجزم بأن بلاط الأئمة كان بمثابة " بيت العلوم الجامع بفنونها من علوم التفسير والحديث وعلم اللسان وعلم النجوم والأصول والفروع والفرائض "[١٣٩].

خلاصة القول؛ أن التعددية الإثنية والمذهبية في الدولة الرستمية تركت آثارا سلبية على الصعيد السياسي، وأخرى إيجابية على المستوى الحضاري عموما؛ والثقافي خصوصا.


**Abstract**

**Ethnic and sectarian pluralism in the Rustamid dynasty**
**What is for it and what is on ?**
**By Salma Mahmoud Ismail**

The study of the subject begins from a theoretical framework for Ibn Khaldun about "the impact of Tribalism And Religious advocacy in the rise and fall of states." As well as his statement about "the causes of alliances, tribal coalitions, racism and the factors of their separation."

Therefore, this research was a practical application of the Khaldun vision in the philosophy of Moroccan history in the Islamic Middle eras. The Rustamid dynasty in the Middle Maghreb in 162 AH, and fell in 296

AH. In both cases, the study proved the credibility of Ibn Khaldun's vision with distinction.

The Rustic State was founded on the basis of a tribal alliance led by the Lamaia tribe, which included many middle-eastern tribes from both the Butr and the Pyrenees. As for the sectarian call, it is in the external doctrine of Ibadi, which was adopted by all the tribes that formed the tribalism of the state. This resulted in its healing and unification, and hence was one of the reasons for its strength in the formation stage and helped its political development and cultural prosperity during the rule of the first three imams.

However, this political stability and cultural prosperity led to the migration of elements of many ethnic groups - Persians and Arabs from the East, as well as new Moroccan tribes _ and stability in the Rustamid dynasty. And more importantly; it was on other doctrines - Malikite and Sufri and the Mutazila and Shia - different from the doctrine of the Ibadi state.

The policy of religious and religious tolerance adopted by the early imams has resulted in intellectual flourishing and cross-fertilization; as well as economic prosperity as a result of the revival of commercial activity, especially with the Middle Sudan, the gold and slave trade habitat.

Obviously, that the rivalry between the different ethnicities and the followers of different sects leads to a political struggle to win the position of imamate, which led to "civil wars" that resulted in the weakness of the Ibadi imamate. This led to the emergence of other dissenting doctrines, including the doctrines of "Samahiyya", "Nakar", "Nafathia" and others, which paved the way for the fall of the state by the new Fatimid state.

In sum, ethnic and sectarian pluralism in the Rustamid dynasty was one of the reasons for its cultural flourishing, and it was one of the reasons for its political weakness, especially during its last year.

## البيليوغرافيا والتوثيق

(١) المقدمة، ص١٣١، بيروت، د.ت.
(٢) نفسه، ص١٣٢.
(٣) محمد عابد الجابري : العصبية والدولة، ص٢٤٥، الدار البيضاء، ١٩٧١.
(٤) المقدمة، ص١٥٨.
(٥) هاشم العلوي : مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري، ج٢، ص٨، الرباط، ١٩٩٥.
(٦) محمد عابد الجابري : المرجع السابق، ص٢٨٧، ٢٨٨.
(٧) إبن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٦، ص١٢١، القاهرة، ١٩٥٧.
(٨) نفسه، ج٧، ص١١،
Marcais; G : La Berberie Musulmane et L'Orient dans L'histoire، P.48، Paris، 1937.
(٩) عن المزيد من المعلومات الخاصة بثورات الإباضية، راجع :
الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، ص١٤٤ وما بعدها؛ تونس، ١٩٦٨.
(١٠) الدرجيني : طبقات الإباضية، ج١، ورقة ١٩، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٥٢٦١ ح.

(١١) نفسه، ورقة ١٩، ٢٠.

(١٢) إبن الصغير المالكي : سيرة الأئمة الرستميين، ص٦، ٩، نشره :
Motylinsky; in : Actes du 14 congres internationale des Orientalistes، vol.3، Part 2،Algers، 1905.

(١٣) نفسه، ص١٦.

(١٤) مجهول : كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، ص١٧٩، الإسكندرية، ١٩٥٨،
Gautier ; E.F : Les siecles obscurs du Maghreb، P.118، Paris، 1923.

(١٥) الشماخي : كتاب السير، ص١٤٠، القاهرة، د.ت.

(١٦) أبو زكريا : كتاب السيرة وأخبار الأئمة، ورقة ١٤، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٧٠٦٢ح.

(17) Julien; C.A : Histoire de L'Afrique du Nord، P.235، Paris، 1931.

(١٨) النفوسي : الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، ج٢، القاهرة، د.ت.

(19) Le siecle obscurs، P.264.

ويرجع ذلك – في نظره – إلى مسئوليتها عن تحول الإمامة من الشورى إلى الوراثة نظرا لزواج مؤسس الدولة من زناتية. لذلك استغلت قوتها في تنصيب ابنه عبد الوهاب بعد وفاته قسرا؛ ضاربة عرض الحائط بوصية والده باختيار خلفه وفقا لإجماع مجلس المشورة؛ وهو ما سنوضحه في موضعه من الدراسة.

(٢٠) إبن الصغير : المصدر السابق، ص٢٧.

(٢١) نفسه، ص٢٧، ٢٨.

(22) Faroughy; A : A Persian Dynasty in North Africa، P.15، Islamic review، London، April 1952.

(٢٣) النفوسي : المصدر السابق، ج٢، ص٢٣١.

(24) Julien : Op. Cit، P.203.

(٢٥) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص١٠٥، القاهرة، د.ت.

(٢٦) الشهرستاني : الملل والنحل، ص١٢٢، القاهرة، ١٩٥٦.

(٢٧) النفوسي : المصدر السابق، ص٩٤.

(٢٨) نفسه، ص٤٢، ٥١.

(٢٩) أبو زكريا : المصدر السابق، ورقة ١٩.

(٣٠) قدامة بن جعفر : الخراج وصنعة الكتابة، ص٢٩٥، ليدن، ١٨٨٩.

(٣١) وداد القاضي : إبن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية، ص٤٥، الجزائر، ١٩٧٧.

(٣٢) الدرجيني : طبقات الإباضية، ج١، ورقة ٢٣.

(٣٣) الشماخي : المصدر السابق، ص١٤٧.

(٣٤) الدرجيني : المصدر السابق، ورقة ٢٤.

(٣٥) كان التنظيم الإباضي السري في البصرة قد تولى رئاسته الربيع بن حبيب خلفا لأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة. وكان منشغلا آنذاك بعلاج مشكلة مماثلة بين إباضية عمان – الذين أسسوا دولة لهم عاصرت دولة بني رستم – فأحال مشكلة إباضية المغرب إلى رئيس إباضية مصر شعيب بن المعرف؛ الذي نرجح أن فتواه كانت لصالح النكار؛ على العكس مما ذهبت إليه بعض مصادر الإباضية الوهبية من الزعم بأنه أفتى لصالح الإمام عبد الوهاب بأن " الإمامة تامة والشرط باطل ".
أنظر : الشماخي : المصدر السابق، ص١٤٧.
وليس أدل على خطأ هذا الزعم من ذهاب شعيب بن المعرف إلى المغرب، وفشله في إقناع الإمام عبد الوهاب بقبول طلب ابن فندين عن عودة "مجلس المشورة". عندئذ انضم شعيب إلى النكار في قتال عبد الوهاب.
عن مزيد من المعلومات؛ راجع : مجهول : تاريخ أهل عمان، ص٦٧، ٦٨، عمان، ١٩٨٦،
السيابي : عمان عبر التاريخ، ج٢، ص١٠ وما بعدها، عمان ١٩٨٦.

(٣٦) أبو زكريا : المصدر السابق، ورقة ١٨.

(٣٧) نفسه، ورقة ٢٥.
(٣٨) الشماخي : المصدر السابق، ورقة ١٨.
(٣٩) أبو زكريا : المصدر السابق، ورقة ٢٨.
(٤٠) النفوسي : المصدر السابق، ص١٩٥.
(41) Lewcki ; T : Melanges Berbers Ibadites، Revue des etudes Islamiques، cahier 3، P.270، Paris، 1936.
(٤٢) إبن الصغير : المصدر السابق، ص٢٥.
(٤٣) جورج مارسيه : مادة "بنو رستم" بدائرة المعارف الإسلامية، ص٩٤.
(٤٤) الدرجيني : المصدر السابق، ورقة ٣٤.
(٤٥) جورج مارسيه : المرجع السابق، ص٩٥.
(٤٦) وهو ما أثبته مؤرخ نابه في إحدى دراساته المهمة.
أنظر : محمود إسماعيل : دور التنظيم السري الإباضي في التواصل بين إباضية المشرق والمغرب.
بحث في كتاب : دراسات في الفكر والتاريخ الإسلامي، ص١٣١ وما بعدها، القاهرة، ١٩٩٤.
(٤٧) إبن الصغير : المصدر السابق، ص٥٦.
(٤٨) نفسه، ص٣١، ٤٧.
(٤٩) نفسه، ص٣٢.
(٥٠) النفوسي : المصدر السابق، ص٢٣٦.
(٥١) إبن الصغير : المصدر السابق، ص٤٠.
(٥٢) يؤثر عنه تأليف عدة كتب عن المذهب الإباضي والرد على مخالفيه من المذاهب الأخرى.
أبو زكريا : المصدر السابق، ورقة ٣١.
(٥٣) إبن الصغير : المرجع السابق، ص٤٢ ــ ٤٥.
يحمد للإمام أبي اليقظان توجيه نداء إلى الرعية يحض فيه على اجتناب التشرذم والفرقة، واتباع سنه السلف الصالح. منه تقتبس قوله : "...عليكم معاشر المسلمين باتباع الماضين من أسلافكم، والمتقدمين من أهل دعوتكم؛ فاقتفوا أثارهم، واهتدوا بهداهم، وخالفوا أهل البدع والأهواء المذلة...".
البرادي : الجواهر المنتقاه في إتمام ما أخل به كتاب الطبقات لأبي العباس الدرجيني، ورقة ٩٣، ٩٤، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٢١٧٩١ب.
(٥٤) أنظر : النفوسي : المرجع السابق، ج٢، ص٢٧٠.
(٥٥) أنظر : إبن الصغير المالكي : المرجع السابق، ص٤٨، ٤٩.
(٥٦) نفسه، ص٥١.
(٥٧) أبو زكريا : المصدر السابق، ورقة ١٩.
(٥٨) محمود إسماعيل : مغربيات، ص١٣٧، فاس، ١٩٧٧.
(٥٩) المرتضى : المنية والأمل في شرح الملل والنحل، ص٢٠، القاهرة، ١٩٤٩.
(60) Lewcki : Op.cit، p.29.
(٦١) الدرجيني : المصدر السابق، ورقة ١٠٥.
(62) Lewcki : Op.cit، P.30.
(٦٣) النفوسي : المصدر السابق، ج٢، ص٢٦٥.
(٦٤) إبن عذاري : المصدر السابق، ج١، ص٢٧٨.
(٦٥) أبو زكريا : المصدر السابق، ورقة ٣٢.
(٦٦) إبن الصغير : المصدر السابق، ص٥٦.
(٦٧) النفوسي : المصدر السابق، ج٢، ص٢٩١.
(٦٨) إبن خلدون : العبر، ج٤، ص٢٠٣.
(69) Mercier : Histoire de L'Afrique Septentrionale،P.89، Constantine، 1875.

(٧٠) صاعد الأندلسي : طبقات الأمم، ص١٦، القاهرة، ١٩٩٣.

(٧١) نفسه، ص١٢.

ونلاحظ أن هذا التصنيف هو ما أخذ به المؤرخ الكبير أرنولد توينبي في مشروعه الكبير الذي عرض فيه للحضارات التي أسهمت في ارتقاء البشرية، فذكر أنها قرابة عشرين حضارة. كما رصد نحو ست حضارات اعتبرها "منقرضة"؛ منها حضارة العبرانيين التي علل انقراضها نتيجة انطوائها على التعصب العرقي، والدوجما الدينية.

راجع:

محمود إسماعيل، سلمى محمود إسماعيل : فلسفة التاريخ – أضواء جديدة، ص٩٤ وما بعدها، القاهرة، ٢٠١٥.

(٧٢) صاعد الأندلسي : المصدر السابق، ص٥٩ وما بعدها.

(٧٣) نفسه، ص١٩.

(٧٤) نفسه، ص٢٧.

(٧٥) نفسه، ص١٠٩.

(٧٦) نفسه، ص١١٠.

(٧٧) نفسه ص،١١١.

(78) Faroughy : Op.Cit، P.12.

(79) أنظر : Muir; W: The caliphate ; its rise، decline and fall، P.407، Beirut، 1963.

(٨٠) أنظر : إبن خلدون : المقدمة، ص٢٦٩.

(٨١) الشهرستاني : المصدر السابق، ص١٢٣.

(٨٢) السوفي : شرح السؤالات، ورقة ٢٧، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٢١٧٨٩ب.

(83) Smith; P: The Ibadites، Moslem world، vol.12، p.114، July، 1922.

(٨٤) سيرة الأئمة الرستميين، ص١٥، ١٦.

(٨٥) الشماخي : المصدر السابق، ص١٤١.

(86) Hopkins : Medieval Moslem government in Barbary until the 6th century of Higra، P.5، London، 1958.

(٨٧) من أهم إنجازاته المحمودة إعادة مجلس المشورة – الذي أسسه جده عبد الرحمن وألغاه والده عبد الوهاب – والالتزام بتعاليم المذهب الإباضي في جباية الخراج. فقد كتب إلى أحد عماله في هذا الصدد " الخراج أسهم جعلها الله وأوقفها، وهي وسخ أموال الناس، وليس لنا فيها قضاء ولا زيادة ولا نقصان، ولا أمر ولا نهي إلا على قدر الاجتهاد".

النفوسي : المصدر السابق، ج٢، ص١٨٨.

(٨٨) عول على تحقيق الاستقرار بعد حرب أهلية ضارية أهلكت الحرث والنسل؛ فوزع الوظائف العليا في الدولة على كافة القوى بعد أن كانت من قبل حكرا على القوى المؤازرة للأئمة.

البرادي : الجواهر المنتقاة، ورقة ٩١.

(٨٩) الشماخي : المصدر السابق، ص١٤٨.

(٩٠) إبن عذاري : المصدر السابق، ج١، ص٢٧٨.

(٩١) عن مزيد من المعلومات؛ راجع :

الرقيق القيرواني : المصدر السابق، ص٢٤، ١١٨ وما بعدها.

(٩٢) إبن الأثير : الكامل في التاريخ : ج٥، ص٦٣، القاهرة، ١٣٠٣ه.

(٩٣) إشتهر الفرس بخبرات مهمة في هذا المجال كرسوها في شق القنوات المغطاة؛ وليس فقط في الدولة الرستمية؛ بل في بلاد المغرب والأندلس؛ حتى أطلق على مشروعات الري آنذاك إسم "الأعمال الفارسية".

إبن الصغير المالكي : المصدر السابق، ص١٠.

(٩٤) ليس أدل على دور الفرس في عمران بلاد المغرب من بنائهم مدينة القيروان ومدينة تاكروان في إفريقية أثناء الفتح الإسلامي لبلاد المغرب. كما أسهموا في بناء مدينة فاس حاضرة دولة الأدارسة.
راجع : مجهول : كتاب الاستبصار. ص١٤٥ وما بعدها.

(٩٥) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، ص٦٧، باريس، ١٩٩١.

(96) Bernard; A: Les capitals de la Berberie، Congre des Orientalistes، P.134، Alger، 1905.

(٩٧) إبن حوقل : المسالك والممالك، ص٨٦، ليدن، ١٨٧٣.

(٩٨) النفوسي : المصدر السابق، ج٢، ص١٣٧.

(٩٩) الوسياني : سيرة أبي الربيع الوسياني، ورقة ٢٥ وما بعدها، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٩١١٣ح.

(١٠٠) الشماخي : المصدر السابق، ص٢٧٣.

(١٠١) إبن الصغير المالكي : المصدر السابق، ص١٣.

(١٠٢) كتاب الاستبصار، ص١٤٧.

(١٠٣) إبن الصغير المالكي : المصدر السابق، ص١٣.

(١٠٤) سيرة الأئمة الرستميين : ص١٣، ١٤.

(١٠٥) أنظر : موريس لومبار : الإسلام في عظمته الأولى، الترجمة العربية، ص١٣٢، بيروت، ١٩٧٧.

(١٠٦) المقدمة، ص١٣٢.

(١٠٧) البكري : المصدر السابق، ص٦.

(١٠٨) النفوسي : المصدر السابق، ج٢، ص١٨٢.

(١٠٩) أبو زكريا : المصدر السابق، ورقة ١٣.

(١١٠) النفوسي : المصدر السابق، ص١٣٦.

(١١١) إبن الصغير المالكي : المصدر السابق،ص٥٦.

(١١٢) النفوسي : المصدر السابق، ج٢، ص٢٦٦.

(١١٣) إبن الصغير المالكي : المصدر السابق، ص٤٩.

(١١٤) الشماخي : المصدر السابق، ص٢٦٣.

(١١٥) سيرة الأئمة الرستميين، ص٥٥.

(١١٦) الشماخي : المصدر السابق، ص٢٨١.

(١١٧) نفسه، ص٢٦٤.

(١١٨) الشهرستاني : المصدر السابق، ص١٢٢.

(١١٩) البرادي : الجواهر المنتقاة، ورقة ١٠٦.

(١٢٠) نشر الكتاب حديثا، ويتضمن نحو ثلاثمائة مسألة فقهية أجاب عنها؛ بما يشي بكونه مجتهدا وفق بين أصول الفقه الإباضي وبين معطيات الواقع المتغير. كما يحوي وصايا تتعلق بالسياسة والحكم، قدمها لابنه أفلح الذي تولى الإمامة من بعده.
أنظر : عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم : مسائل نفوسة، ص١٢، ١٣، غرداية، ١٩٩١.

(١٢١) إبن الصغير المالكي : المصدر السابق، ص٣١.

(١٢٢) البرادي : رسالة في بعض كتب الإباضية، ورقة ٢٠٧، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٢١٧٩١م.

(١٢٣) الشماخي : المصدر السابق، ص١٦٢.

(١٢٤) النفوسي : المصدر السابق، ج١، ص١٩٧.

(١٢٥) أبو زكريا : المصدر السابق، ورقة ٣٠.

(١٢٦) الوسياني : المصدر السابق، ورقة ٢.

(١٢٧) من أهم هذه الكتب مؤلفات رؤساء التنظيم الإباضي بالبصرة، وهم جابر بن زيد وأبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة والربيع بن حبيب.
راجع : الربيع بن حبيب : مسند الجامع الصحيح، ص١١٣، مسقط، ١٩٨٥.
(١٢٨) الدرجيني : المصدر السابق، ورقة ٩٨.
(١٢٩) إبن الصغير المالكي : المصدر السابق، ص٥٦.
(١٣٠) المالكي : رياض النفوس، ج١، ص٤٠٩، القاهرة، ١٩٥١.
(١٣١) الشماخي : المصدر السابق، ص٢٦٣.
(١٣٢) إبن الصغير المالكي : المصدر السابق، ص٥٧.
(١٣٣) إبن القوطبة : تاريخ افتتاح الأندلس، ص٧١، ٧٢، بيروت، ١٩٥٧.
(١٣٤) البكري : المصدر السابق، ص٦٦.
(١٣٥) الدرجيني : المصدر السابق، ورقة ١٠٥.
(١٣٦) الشماخي : المصدر السابق، ص١٥٥.
(١٣٧) Lewcki : Op.Cit. P.280.
(١٣٨) النفوسي : المصدر السابق، ج٢، ص١١٥.
(١٣٩) الدرجيني : المصدر السابق، ج١، ورقة ٢٥.